

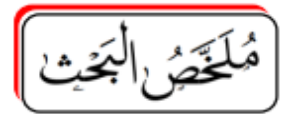
قراءة في البحوث السيميائية للأستاذ سعيد بن غراد¹

أ.د. رشيد بن مالك*

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان (الجزائر)

rachid.benmalek@yahoo.com

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2024 / 12 / 28	2024 / 12 / 26	2024 / 12 / 23



لما حدثني الأستاذ محمد الداوي عن تكريم الأخ العزيز سعيد بن غراد على هامش الملتقى الدولي حول السيميائيات الذي نظم بجامعة بيسكرة، سعدت كثيرا لقناعتي بأن هذا الباحث الذي تحول إلى إيقونة علمية جدير بهذا التكريم الذي يعد اعترافا صريحا بالجهود العلمية التي بذلها على امتداد أكثر من ثلاثة عقود للنهوض بالبحث والتأسيس لخطاب علمي ليس فقط في المغرب بل في سائر البلدان العربية. ويكفي أن نعاين البحوث العلمية الغزيرة من رسائل ماجستير ودكتوراه التي تناولت إنجازاته السيميائية بالدرس والتحليل لتتأكد من نفوذه العلمي الواسع في مختلف الدوائر العلمية. إن هذا الأثر العميق الذي تركه عند الباحثين صادر بالدرجة الأولى عن قدرته الفائقة في ترويض اللغة العربية وتبسيط الخطاب العلمي للقارئ العربي على الرغم من التعقيدات المفهومية التي تحملها كتب غريماس بوجه خاص ومدرسة باريس بوجه عام. إنني مدرك تمام الإدراك الجهد الذي تتطلبه صناعة مثل هذا الخطاب والقيود التي تكبله ولا تترك له إلا هامشا محدودا من المناورة. فهو يفكر في المتلقي العربي الذي تعود على نصوص نقدية تقليدية نمطية مملة، وفي سد الفراغات الآتية من افتقاده إلى النقاط المعلمية للبحث السيميائي المعاصر وفي إيجاد الحلول للمعضلة المصطلحية التي تشظت في عدد غير قليل من الدراسات العربية إلى ترجمات عديدة للمصطلح الواحد بحيث يصعب معها إبعاد تشويشها على البحوث السيميائية الجادة والاستجابة إلى رغبة القارئ في الدخول في وصلة بهذه القيم الكفيلة التي تسمح له بإماطة اللثام عن جوهر الممارسة السيميائية. ولفك شفرة هذه التناقضات التي وصل بها البحث إلى حالة من الانسداد كبيرة في بداية التسعينيات من القرن الماضي، ألقى الأستاذ بن غراد نفسه، في غياب التحري العلمي الجماعي مكرها على إيجاد حلول فردية منضوية تحت استراتيجية حركتها لإطلاق أربعة مشاريع.

الكلمات المفتاحية: سعيد بن غراد - السيميائية - السرد - القراءة - التأويل

*الاسم واللقب والبريد الإلكتروني: رشيد بن مالك. rachid.benmalek@yahoo.com

Abstract

When Professor Mohamed El Dahi told me about the honouring of dear brother Said Bengrad on the sidelines of the International Forum on Semiotics held at the University of Biskra, I was very happy because I was convinced that this scholar, who has become a scientific icon, deserves this honour, which is a clear recognition of the scientific efforts he has made over more than three decades to promote research and establish a scientific discourse not only in Morocco but in other Arab countries. One only has to look at the abundant scientific research, including Masters and PhD theses, that have examined and analysed his semiotic achievements to ascertain his wide scientific influence in various scientific circles. This deep impact he left on researchers stems primarily from his superior ability to tame the Arabic language and simplify scientific discourse for the Arab reader despite the conceptual complexities of Grimas's books in particular and the Paris School in general. I am fully aware of the effort required to create such a discourse and the constraints that shackle him and leave him with limited room for manoeuvre. He is thinking of the Arab recipient who is accustomed to boring, stereotypical, traditional critical texts, filling in the gaps resulting from the lack of benchmarks for contemporary semiotic research, finding solutions to the terminological dilemma that has fragmented in quite a few Arabic studies into numerous translations of the same term, making it difficult to eliminate their confusion with serious semiotic research, and responding to the reader's desire to enter into a connection with those values that allow him to uncover the essence of the semiotic practice. In order to decipher these contradictions, which brought research to a state of stalemate in the early 1990s, Professor Bengrad found himself, in the absence of a collective scientific inquiry, forced to

Keywords: Said Bengrad - Semiotics - Narrative - Reading - Interpretation

1. قراءة في مشروع مجلة علامات: المعينات وسبل تجاوزها

وقد جسد أول مشروع في مجلة علامات التي وإن تعددت فيها الاتجاهات النقدية وتباينت وتضاربت المفاهيم على مساحتها، فإنها استطاعت أن تسترعي انتباه الباحثين والقراء على حد سواء. وما كان لهذه المجلة أن تلقى مثل هذا الاحتفاء والرواج لولا التفكير المعمق في الخيارات الإبيستمولوجية التي طرحها الأستاذ سعيد في لحظة تأسيس علامات عنوانا لمجلة تعنى بالدراسات السيميائية والنقدية. إن قراءة متأنية في مجلة علامات وفي الدراسات التي أنجزها تفضي بنا إلى تصنيف عام يمكن أن نفهم من خلاله طبيعة المشاريع الجزئية التي أطلقها الباحث في هذه المجلة. ولعل أولها يتجلى في الاستراتيجية العلمية التي تحمل التوجهات المنهجية الأساسية على الأقل في العشرة أعداد الأولى من المجلة والتي تمثل الهاجس المركزي للهيئة العلمية. ويظهر هذا واضحا في افتتاحية العدد العاشر من المجلد² التي تعد وقفة تقييمية لمضامين الأعداد السابقة التي تنخرط بشكل مباشر في الإشكالية العامة للبحث السيميائي المعاصر وتحديد السيميائية مدرسة باريس: "لقد شغلنا منذ صدور عددنا الأول إلى الآن بسؤال المعنى وبكثير من القضايا المتصلة بشروط إنتاجه وتداوله واستهلاكه وتلقيه. وضمن هذا الانشغال تدخل كل المحاور التي قدمناها في أعدادنا السابقة. فلم تكن تلك المحاور سوى محاولة لصياغة أسئلة حول الوقائع الإنسانية

المتنوعة بحثا عن معرفة أفضل "للذات و"للآخر"، "للأنا" و"النحن"، للماضي والحاضر اعتمادا على ما تمدنا به العلوم الحديثة من مناهج وأدوات ومفاهيم"³.

تنصهر مضامين هذا النص بسهولة في عنوان مجلة تعنى بالعلامات المدركة ليس في عزلتها بل في العلاقات التي تقيمها العلامات فيما بينها. وعلى هذا الأساس، يكون الطريق ممهدا للانشغال بسؤال المعنى وشروط إنتاجه وتداوله واستهلاكه وتلقيه، ويتوافق هذا التوجه المنهجي العام تماما مع السيميائيات التي لا تتخذ لنفسها دراسة العلامات وضبطها وتصنيفها موضوعا أساسيا، بل تسعى إلى بناء نظرية عامة للمعنى انطلاقا من مستويات تحليل محددة⁴.

ولئن كان موضوعها متصلا بشروط إدراك وإنتاج المعنى كيفما كانت فضاءات وأشكال تجليه، فلأن المعنى موجود في كل مكان، في خطاباتنا، في ممارساتنا، في المواضيع الثقافية التي ننتجها ونؤولها. وعندئذ فكل المواضيع السيميائية التي تتكفل بها العلوم الاجتماعية والإنسانية لا تملك إلا أن تمر عبر مصفاة السيميائيات: فالسلوكات والطقوس الدينية والظواهر الاجتماعية والثقافية الدالة باللسان وغير اللسان، فكل هذه المواضيع تحمل من وجوه عدة معنى، وتشكل بامتياز أرضية خصبة لإطلاق البحوث.

ضمن هذا التصور النظري العام، حددت السيميائيات لنفسها هدفا يفسح مجال تلاقيها مع العلوم الاجتماعية. ولكل هذه الاعتبارات، ومن منطلقات هذا الإطار المنهجي العام الذي نلمسه في دراساته الصادرة في جميع أعداد المجلة، صمم الأستاذ سعيد عددا غير قليل من المشاريع نلحظها بشكل واضح في إنجازاته العلمية المتواصلة على امتداد أربعة عقود على وجه التقريب. أخذ البعض منها حظا كبيرا من التجريب (من رواية الشراع والعاصفة مروراً بدراسة الوصلات الإشهارية، والحجاب، والدستور المغربي، والترجمات المتنوعة التي أنجزها) من متكآت نظرية أدرك الباحث قدرتها على تجلية الأبعاد الدلالية لكل مناحي الحياة اليومية للواقع العربي هاجسه المركزي في كل هذه الإنجازات يتجاوز تلك البحوث التي تسقط في الانتقائية المنهجية وتعم النص بأرمادة من المصطلحات يستحيل أن يقيم القارئ تواصلها معها. إن هذا النوع من النصوص الذي تنامي في الدراسات السيميائية العربية بشكل لافت وأضحى يشوش على نصوص يجتهد أصحابها في توخي الدقة في التعامل مع هذا المصطلح أو ذاك وفي ضبط هذه الإشكالية أو تلك وفي صياغتها صياغة تضمن بشكل سلس هذه الوصلة العلمية بالقارئ والوقوف على أدق التفاصيل الدلالية. ونظرا للأهمية التي تكتسبها العدة المصطلحية في صناعة خطاب علمي جدير بهذا الاسم، فإن السنوات التي قضاها الأستاذ سعيد في ترقية البحث من خلال إصدارات المجلة التي اطلع عليها بحكم المنصب الذي يشغله فيها قاداته إلى قراءة عميقة في واقع البحث العربي وتقييمه تقييما دقيقا

نلاحظه في رؤيته المصطلحية التي بلورها استنادا إلى ما هو شائع بين الباحثين في ميدان المصطلحية السيميائية أولا، واستنادا إلى ما يمكن أن تقدمه اللغة العربية في هذا المجال من خلال قواميسها وخاصة لسان العرب ثانيا، واستنادا إلى اجتهاده وممارسته وخبرته في هذا المجال ثالثا.⁵

وإذا دققنا النظر في النصوص التي كتبها الأستاذ سعيد في مجلة علامات، يمكن أن نصنفها على النحو الآتي:

مجالات البحث الموزعة عبر عناوين دراسات الأستاذ سعيد بن غراد المنشورة في مجلة علامات/ عدد المجلة وتاريخ إصدارها

المصطلح والسيميائيات	الترجمة	الدراسات الإشهارية	السرد والقراءة والتأويل
- الجسد بين السرد ومقتضيات المشهد الجنسي قراءة في رواية " الضوء الهارب " لمحمد برادة 1996/6	- الرمزية والمخيال والواقعي: نيكول إيرفات دسمت 1995/3	- الإرسالية الإشهارية/ التوليد والتأويل 1995/5	- سيميائيات بورس 1994/1
- الذات والجلاد وتفصيل الزنا في قراءة في رواية سيرة الرماد لخديجة مروزي 2005/23	- الصورة الثابتة ترجمة (ترجمة مشتركة مع عبد العلي اليزمي 1995/5	.. ولا يكف الحصان عن الصهيل 1997/7	- المؤول والعلامة والتأويل- بصدد بورس 1998/9
- الأنا بين الممنوع وسلطة الزمن قراءة في رواية سمر الكلمات لطالب الرفاعي 2006/26	- مارينا ياغيلو: الكلمات والنساء القاموس واضطهاد المرأة 1997/8	- نساؤهم ونساؤنا 1999/12	- السميوزيس والقراءة والتأويل 1998/10
- ذاكرة الماء ولا وعي السرد/ الطوفان الرمزي في السرد الروائي 2009/31	- أمبيرتو إيكو السميوزيس والقراءة والتأويل. 1999/11	- والنجم إذا علا 2002/18	- التأويل بين الكشف والتعدد ولا نهائية الدلالات 2006/25
- "أنا" الغرام و"حالات التشهي" قراءة في رواية "اسمه الغرام" لعلوية صبح 2010/34	- حاشية على اسم الوردة أو آليات الكتابة: أومبيرتو إيكو 2001/15	- الصورة الإشهارية/تمثيلات البارد والساخن 2003/20	- التأويل بين التناظر والتدلال 2008/29
- السرد الديني والتجربة الوجودية " قصة إبراهيم نموذجاً " 2013/39	ماريو فالديس، بصدد التأويل 2008/30	- هناك بعيدا في الأعالي 2007/27	- المعنى بين التعددية والتأويل الأحادي 2000/13
- شخصيات الرواية وأشباح - التاريخ 2015/43		- الفضاء الإشهاري بين التمثيل والحلم 2008/30	- سياق الجملة وسياق النص/ الفهم والتأويل 2010/33
		- الصورة ووهم الاستنساخ 2009/32	- الخلاف والاختلاف أو الفصل بين الواحد والتعدد 2011/35
		- الفصيح والداخ في الإشهار 2014/42	- "تعددية" الحقائق و"فرجة" الممكن 2014/41
			-عن التسنين السردية والتسنين الايديولوجي 1994/2
			- الجسد، اللغة وسلطة الاشكال 1996/4

- المصطلح السيميائي، الأصل والامتداد، المصطلحية والحاجات الإنسانية 2000/14 - السيميائيات وموضوعها 2001/16 - مفاهيم في السيميائيات . 2002/17			- الترميز السياسي وبناء الهوية 2003/19 - استراتيجيات التواصل 2004/21 - السرد والتجربة الحسية 2004/22 - عن السلطة والديموقراطية وتعدد المعاني 2005/24 - اللغة والعوالم العارية 2007/28 - الزمنية واحتمالات السرد 2011/36 - السردية والتجريد المفهومي 2012/37 - السيرة الذاتية 2012/38 - النوع الثقافي مصدرا للتنوع الدلالي 2013/40 - بعض من بارث 2015/44
--	--	--	---

لا يمثل هذا الجدول إلا الدراسات التي نشرها الأستاذ سعيد من تاريخ إنشاء المجلة إلى آخر عدد. لقد ساهم بشكل مستمر في جميع الأعداد ومن دون أي انقطاع. قبل أن نقدم دراسة وافية عن مضامين هذه النصوص، يجدر بنا أن نقدم بعض الإضاءات حول افتتاحية العدد الثاني من المجلة وأبعادها، كما سنكشف عن الجهود المضنية التي بذلها الأستاذ سعيد ولا يزال لضمان وصول هذه المجلة إلى القارئ العربي.

وفي الأخير فإن هيئة تحرير علامات توجه دعوة خالصة للمثقفين، مغاربة وعربا، للمساهمة بانتاجاتهم الفكرية قصد إغناء المجلة وتطويرها. فنحن واعون أن استمرارية علامات وتقدمها رهينين بقدرتها على الانفتاح على كل الطاقات الفكرية المغربية والعربية⁶.

تضطلع هيئة تحرير علامات باعتبارها شخصية جماعية، في سبيل إنجاز المشاريع العلمية المسطرة في كل عدد بدور ريادي يندرج في إطار برنامج أساسي يكون الهدف منه تحقيق حراك علمي ومجموعة من القيم تنصهر في النهوض بالبحث العربي. وتشتغل الافتتاحية المقيدة سلفا على سجلين. يبدو السجل الأول واضحا من خلال تحريك المثقفين المغاربة والعرب للمساهمة بانتاجاتهم الفكرية وتنصيحهم في الوقت نفسه فاعلا جماعيا يسعى إلى تحقيق موضوعين أساسيين: يتجلى الموضوع الأول في هذا الفعل الإقناعي الذي تمارسه هيئة التحرير على المثقفين بصفة عامة لحملهم على إنجاز المشاريع العلمية وتحقيق نقلة نوعية يجسدها الإغناء والتطوير. أما الموضوع الثاني فإنه يقترن اقترانا حميما برغبة الهيئة في تشريف التزامها بالاستمرارية أولا وبقدرتها على استبعاد كل ما من شأنه أن يقصي هذه الطاقة أو تلك أو مصادرة هذا الرأي أو ذاك ثانيا. أما الدور الثاني الذي لا ينتبه إليه القارئ ويمر عليه مر الكرام وهو يتصفح هذه المجلة الجاهزة الأنيفة، فإنه يمثل في مجموعة من الأعمال التي ينجزها الأستاذ سعيد بوصفه مديرا مسؤولا على المجلة وتتجسد من خلال الاستمرارية في تلقي المادة وتقييمها وترشيحها للنشر بالتنسيق مع الهيئة العلمية، وتصنيفها بحسب المحاور المعتمدة في كل عدد وضمان الميزانية لطبع المجلة والحرص على تسليمها لدار الطبع جاهزة وإعادة قراءتها من جديد وفي أدق التفاصيل والوقوف على تعديل وتصويب ما يراه مناسبا من الأخطاء المطبعية التي قد تتسرب إلى المقالات ثم تقديمها من جديد بالصورة الجميلة التي استقر عليها المدير المسؤول لتلقى طريقها إلى الطبع ثم التوزيع وضمان وصولها إلى القارئ. هكذا نكون قد أخذنا فكرة واضحة عن الجهود المضنية والتضحيات الجسيمة التي قام بها الأستاذ سعيد ولا يزال على امتداد أكثر من عقدين في سبيل ترقية البحث العلمي. وهذا يقودنا إلى الاعتراف بأنه من السهل جدا أن تصدر مجلة ولكنه من الصعب جدا أن تضمن الاستمرارية.

قراءة في القسم الأول من الجدول: السرد والقراءة والتأويل

وإذا قرأنا هذا الجدول التمثيلي، فسندرك أن إنجازاته المنشورة في مختلف أعداد مجلة علامات، تتوزع على مجموعة من المشاريع العلمية الغزيرة تشكل بؤرة حقيقية انطلقت منها كل الأعمال الصادرة بعد 1994 إلى يومنا هذا. قسم كبير من هذه الإنجازات تصدى لمختلف القضايا المتصلة بسيميائية بورس وإشكالية المعنى والقراءة والتأويل والتجليات الدلالية للسلطة والديمقراطية واهتمامات أخرى في غاية الأهمية. إن الأستاذ سعيد لا

يكتفي بهذه الدراسات في ارتقائه بكفاءة القارئ إلى أقصى درجة ممكنة؛ فهو مقتنع تمام الإقتناع بأنه يعاني من فراغات معرفية لا سبيل إلى سدها إلا بترجمة النصوص المؤصلة للمعنى والتأويل والقراءة⁷. فالترجمة هي بمثابة المعبر الذي يقود القارئ العربي إلى الاحتكاك بأهم النظريات الغربية التي حققت قفزة نوعية في البحوث السيميائية الراهنة، والتعامل مع النصوص في أصولها. إن الأستاذ سعيد لا يكتفي بالترجمة ولا بالمقالات المنشورة في مجلة علامات بخاصة وبعض المجالات العربية بعامة، فهو لما يرغب في التوسع في هذه الفكرة أو تلك من المقال، أو لما يعتور النظرية بعض النقص ويحتاج إلى الإفاضة والتعبير عن موقفه النقدي منها، أو أنه يدرك محدودية المعلومات في المقال، فإنه يلجأ إلى الدراسات المطولة على نحو ما سجلنا ذلك في كتابه سيرورات التأويل من الهرموسية إلى السيميائيات⁸. يقر الباحث في مقدمة هذه الدراسة بوجود هرموسيات متنوعة، ويقدم للقارئ بعض النقاط العلمية لروادها بدءاً من شلايرماخر وانتهاءً بغادامير وريكور⁹. يخصص لكل واحد من هؤلاء الرواد فصلاً. وحتى لا يلتبس الأمر على القارئ، يحرك تحديده المنهجي في اتجاهين. يسلط الأضواء أولاً على الأصول الإغريقية للهرموسية " تشير الهرموسية (herméneutique) في منابعها الأولى إلى التأويل، أي إلى النشاط المعرفي الذي يقود إلى استعادة معنى النص أو وثيقة غابت جوهره صروف الدهر واختلاف الأعصر. لذلك وجب النظر إليها باعتبارها مجموعة من القواعد التي يعتمد عليها المؤول من أجل تبين طريقه وسط ركام هائل من نصوص تخفي عادة "مقاصدها الحقيقية" في سلسلة من العناصر التي تشكل مادتها المرئية"¹⁰. ويجنح ثانياً إلى التطويق الدلالي لأصل التسمية " وأصل التسمية إغريقي كما يوحي بذلك الجذر " hermeneias " وهذا اللفظ دال على التأويل، أي على وجود ممكنات معنوية مودعة في النص خارج معانيه الحرفية"¹¹. يهدف اجتهاد الباحث من خلال التدقيق المفهومي للمصطلح إلى ترسيخه التاريخي، وإثارة مختلف المفاهيم التي تناولها الباحثون، وتحليلها ومناقشتها والبرهنة على علة استعمالها في هذا السياق أو ذاك، إلى إيلاء أهمية قصوى للمقاربة النسقية في ترجمة المصطلح من منطلقات رؤية لا تتعامل مع الترجمة بالارتكاز على القوائم المصطلحية التي يسند فيها مصطلح لكل مفهوم بل من موقع العلاقات التي يقيمها المصطلح مع المصطلحات الأخرى سواء تعلق الأمر باللغة المصدر أو اللغة الهدف. كما يهدف إلى التشديد على ضرورة الانتباه إلى المفاهيم التي تتغير بتغير أسيقتها التاريخية ومن الخطأ أن ننظر إلى المصطلح بقطع النظر عن الأسيقة التي صنعت مفهومه والإبيستيميا التي ينتهي إليها. وسوف نلاحظ في مواضع أخرى من الدراسات التي أنجزها الباحث حول المصطلح أن الأزمة التي يعاني منها البحث السيميائي المعاصر يمكن أن نرد بعض أسباب نشوئها إلى الخلط في المفاهيم.

قراءة في القسم الثاني من الجدول: الدراسات الإشهارية

أما القسم الثاني من بحوث الأستاذ سعيد، فإنه يتمحور حول الظاهرة الإشهارية في أبعادها النظرية والتطبيقية، ويضم مجموعة من الدراسات في مجال الإشهار. وقد بدأت اهتماماته بهذا الحقل المعرفي الهام في

منتصف التسعينيات من القرن الماضي وأدرك أهميته لما للوصلة الإشهارية من تأثير مباشر في سلوك المستهلك، وقدرة على تعبئته وحثه على الشراء باستعمال الآليات الإقناعية. وتظل خطورة الوصلات الإشهارية في حياة المواطن المغربي معطى قائما وحقيقة اجتماعية وثقافية قبل أن تكون آلية اقتصادية تدفع إلى البيع¹². وعلى هذا الأساس، فإن الهاجس المركزي عند الأستاذ سعيد هو تعبئة العدة المنهجية وتحريكها لفهم "آليات اشتغال المجتمع وقضايا الفكرية والأخلاقية والمعرفية"¹³. وإذا دفعنا بهذا التحليل باتجاه البحث عن الخيارات المنهجية التي قادت إلى هذه القناعة العلمية في التعامل مع الموضوعات السيميائية من منطلقات نظرية متنوعة ومتماسكة في آن واحد، فسندرك أن الباحث لقي نفسه أمام خيارين أساسيين. إما أن يلجأ إلى التطبيق الصارم والآلي للنظرية السيميائية وتسخيرها لفهم النص ولا شيء غير النص على نحو ما نلاحظ ذلك في عدد غير قليل من الدراسات السيميائية الصماء التي لا يهتم بها لمن تكتب وتتعامل مع المعطى النظري بشيء من الخضوع والوفاء في أثناء الممارسة التطبيقية دون مراعات واقع البحث العربي. وإما أن ينزع إلى تليين النظريات السيميائية وترويضها بشكل يسمح له بالوقوف على تحليل لا يلغي التلقين ولا يستبعده، ولكنه يجعل منه ممرا فقط نحو تحديد ورصد الانتظامات الداخلية للمضامين المتنوعة التي يوزعها المجتمع على أشكال تعبيرية بالغة الغنى والتنوع. ويمكن أن نضع ضمن هذا الإطار الدراسات النظرية والتطبيقية التي أنجزها حول الظاهرة الإشهارية ونشرها في مجلة علامات على نحو ما هو مبين في الجدول أعلاه. وقد بدأ اهتمامه بهذا الحقل المعرفي الهام بإنجازين مهمين. الأول عبارة عن ترجمة مشتركة مع الباحث عبد العلي اليزمي لنص عنوانه الصورة الثابتة، محاولة تحديد، مأخوذ من كتاب غي غوتي الموسوم عشرون درسا حول الصورة والمعنى¹⁴. أما الإنجاز الثاني المعنون بـ الإرسالية الإشهارية، التوليد والتأويل¹⁵، فإنه يكشف عن بعض أنماط بناء الصورة الإشهارية والعمل من خلالها عن صيغ التدليل في أفق تحديد البناء الإيديولوجي للرسالة الإشهارية. في إطار هذه التوجهات المنهجية، سيكتف الباحث بشكل لافت عن الدراسات التطبيقية (ولا يكف الحصان عن الصهيل، نساؤهم ونساؤنا، والنجم إذا علا، الصورة الإشهارية، تمثلات البارد والساخن)¹⁶ لقناعته الراسخة بأن قيمة النظريات تمثل في قدرتها ليس فقط على إثارة الإشكاليات بل على البناء العلمي للمعطى الذي يثبت صحتها في سبيل الوقوف على القيم التي يفرزها التعامل مع الصورة الإشهارية باعتبارها موضوعا سيميائيا بامتياز. ولا يمكن أن يفهم القارئ جوهر الممارسة في التواصل الإشهاري إلا إذا انتقل من بحوث الأستاذ سعيد المنشورة في مجلة العلامات التي تحفره لقراءة المستجدات العلمية في الظاهرة الإشهارية إلى فضاء علمي أرحب يكون قد وفره له من خلال حرصه على ترجمة أهم الإنجازات في الفكر الأوروبي:

- بيرنار كاتولا : الإشهار والمجتمع، ترجمة سعيد بنكراد ، دار الحوار ، سوريا ، 2012

- غي غوتي: الصورة، المكونات والتأويل، ترجمة سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، 2012.

- دافيد فيكتوروف : الإشهار والصورة، صورة الإشهار، ترجمة سعيد بنكراد،

منشورات ضفاف، بيروت ، 2014.

وحرصه أيضا على تقديم دراسات في نفس الموضوعة:

- سميائيات الصورة الإشهارية: الإشهار والتمثيلات الثقافية، إفريقيا الشرق 2006

- الصورة الإشهارية : آليات الإقناع والدلالة، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، 2009.

- استراتيجيات التواصل الإشهاري : دار الحوار، سوريا ، 2010

3) قراءة في القسمين الثالث والرابع من الجدول: الترجمة /المصطلح والسيميائيات

كرس الباحث سعيد بن كراد جهوده في القسم الثالث لترجمة النصوص التي تشكل الإطار النظري لمقاربة الموضوعات السيميائية، ولم يكتف الباحث بهذه الدراسات الجزئية المهمة التي حرص على نشرها في مجلة علامات على نحو ما هو مثبت في الجدول أعلاه، بل تجاوز ذلك لينكب على المراجع الأساسية في الإشهار والقراءة والتأويل. ولعل أبرز كتاب تصدى له في الدرس الإشهاري المعاصر الإشهار والمجتمع للباحث بيرنار كاتولا Bernard Cathelat. وجاء اختياره لهذا البحث المتميز لاعتبارين أساسيين: أولهما ضرورة تنوع زوايا النظر لمقاربة الظاهرة الإشهارية ذلك أن آليات تحليل الموضوع الإشهاري من منطلقات سيميائية تعد ضرورية ولكنها غير كافية، من هنا نشأت هذه الرغبة في الاحتكاك بأهل الميدان الذين اكتسبوا تجربة كبيرة في التعامل مع الزبون، وفي الاشتغال على العناصر الهوية التي تحركه لشراء المنتج. ومن هنا أيضا تولدت الحاجة لتمكين القارئ من الاطلاع على إنجازات أحد أهم مهنيي التواصل الإشهاري:

" فهو صاحب وكالة إشهارية وساهم بنصيب وافر في ظهور ما يسمى "الإشهار الجديد" في أوروبا وفي فرنسا على الخصوص. وهو مؤسس لأكبر مركز للدراسات الإشهارية في فرنسا "مركز التواصل المتقدم. لا يكتفي الكتاب برصد آليات هذا التواصل من موقع المتلقي الناقد (...) بل يبحث في كل الآليات الإقناعية التي تعتمد عليها الوصلة من أجل الوصول إلى وجدان المستهلك وحثه على الشراء"¹⁷

يدرك الباحث أن المكتبة العربية تفتقر إلى هذا النوع من الدراسات الجادة في المجال الإشهاري. وتوفير هذا الكتاب مترجما إلى اللغة العربية سيفسح المجال للقارئ العربي الاطلاع على المستجدات العلمية التي ستمكنه من الوقوف على جوهر الممارسة الإشهارية واستيعاب تياراتها وأدق تفاصيلها في عالم "أصبح بالضرورة كل شيء فيه موضوعا للإشهار، ولا وجود لنشاط عمومي يستطيع الإفلات من هذه الضرورة التي تعد أحد المظاهر الفرجوية لمجتمع الرخاء، ويكفي في ذلك الإحالة على بعض الحملات الإشهارية لتوضيح هذه البدهة"¹⁸.

1.3 قراءة في: السيميائية (المكاسب والمشاريع)

لا ينبغي أن يغفل القارئ في هذا المقام عن أول دراسة ترجمها الأستاذ سعيد صدرت في مؤلف جماعي عنوانه طرائق تحليل السرد الأدبي، مطبوع بمنشورات اتحاد كتاب المغرب. وسيحدث هذا الكتاب الذي ساهم في ترجمة نصوصه مجموعة من الباحثين المغربية هزة عنيفة في الدرس النقدي العربي لأهمية النصوص المترجمة لباحثين يشكلون إيقونات حقيقية في الفكر النقدي الأوروبي المعاصر (رولان بارت كريماس، طودوروف، جيرار جينبت) وللاتجاه النقدي العام المجسد في عقلنة الدراسات النقدية وهذا بقطع النظر عن التيار الفكري الذي ينتمي إليه كل باحث. فوجود هذه الأعمال في كتاب واحد مؤشر من المؤشرات الإيجابية التي توحى بأن البحث العلمي لا يستقيم إلا في إطار التحري الجماعي. من هذه الزاوية يشكل هذا الكتاب قفزة نوعية في المشهد النقدي المغربي بخاصة والعربي بعامة. وينضاف إلى هذه المؤشرات بروز أعمال جماعية في ترجمة بعض النصوص: التحليل البنيوي ترجمة حسن بحراوي، بشير القمري، وعبد الحميد عقار، مقولات السرد الأدبي، ترجمة الحسين سحبان وفؤاد صفا. وهذا الكتاب الذي شكل أرضية أساسية في البحث السيميائي على أهميته لم يلق صدًى لا في الدراسات المغربية ولا في الدراسات العربية.

إن اختيار هذا النص الهام والموسوم بـ السيميائية (المكاسب والمشاريع)¹⁹ من المسيرة العلمية لـ أ.ج. كريماس، والذي تنبه الأستاذ سعيد إلى خطورته في التوجه النظري العام للبحث السيميائي في السبعينيات من القرن الماضي سيكون له أثر عميق سواء في المنحى المنهجي الذي أخذه بحته الأكاديمي أو في النقلة النوعية التي سيشهدها البحث السيميائي العربي. ونظرا للمكانة الخاصة التي يحتلها هذا النص، وحتى نبين الدقة العلمية للأستاذ سعيد في اختيار هذه المقدمة للترجمة، ونبرز فعاليتها في النصوص السيميائية اللاحقة ومن ضمنها القاموس المعقلن في نظرية اللغة، سنكشف عن أهميتها وأثرها العميق في أطروحته وفي الدراسات السيميائية اللاحقة التي أنجزها الأستاذ سعيد. كما سنركز في نهاية هذه المداخلة على المنطلقات العلمية التي يستند إليها في تعامله مع المصطلح وما هي الحلول التي يقدمها للخروج من المعضلة المصطلحية التي تشكل عائقا حقيقيا في نقل المعرفة النظرية والتطبيقية الوافدة من الخارج إلى اللغة العربية.

سنرصد في البداية انعكاسات هذه المقدمة في الدراسات التي أنجزها الأستاذ سعيد والخيارات المصطلحية التي نزع إليها سواء في ترجمة المكاسب والمشاريع أو في بحته الأكاديمي (رسالة الدكتوراه) الموسوم بـ دراسة سيميائية في تجربة حنا مينه الذي ناقشه في 1992، والبحث عن آليات ترجمة عدد غير قليل من المصطلحات التي تشكل عتبة حقيقية للملازمة الاستدراة المنهجية الحاسمة في الدرس السيميائي عند كريماس بخاصة ومدرسة باريس بعامة.

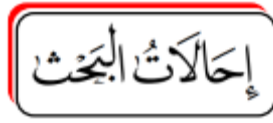
لا بد أن ننبه في بداية هذه القراءة إلى أن جوزيف كورتيس في كتابه مقدمة في السيميائية السردية²⁰ لا يشير لا من قريب ولا من بعيد في أثناء دراسته إلى هذا النص المهم في مسار مدرسة باريس. حاولنا أن نتعقب المكاسب والإنجازات ولاسيما تلك المتعلقة بالخطاطة السردية في جوانبها النظرية والتطبيقية وتحديدًا في تحليل قصة سندريلا ، فلم نلمس ما يوحي بأنه استثمرها في بحثه. وينبغي أن ننتظر صدور السيناريات، القاموس المعقلن في نظرية اللغة²¹ والتحليل السيميائي للخطاب²² لنمسك بالتوجهات الكبرى لهذه المقدمة التي تشكل الإطار العام لعدد من المداخل لعل أبرزها الخطاطة السردية. إن انعكاسات هذه المقدمة في البحث الأكاديمي للأستاذ سعيد وجميع الدراسات ذات التوجه السيميائي (مدرسة باريس) التي أصدرها من بعد تظهر واضحة في الاختيارات الإيبستيمولوجية التي أعلن عنها في بداية البحث. فهو لا يذهب مباشرة إلى قراءة كريمانس للمشروع البروبي ولكنه يشدد منذ البداية على ضرورة الوقوف عند كلود ليفي شتراوس في قراءته للمشروع البروبي وستقف وراء هذا النزوع المنهجي مبررات فلسفية تولى أهمية للخصوصية الثقافية للأشكال السردية والنظر إلى الشخصية لا على أساس أنها ورقية ولا من حيث الأفعال التي تؤديها في برامج سردية محددة، بل من منطلقات رؤية شاملة للإنسان بكل امتداداته التاريخية والجغرافية وعلى أساس العدة الهوية التي تحرك هذه الشخصيات السردية وتدفعها دفعا للقيام بأفعال تسعى من خلالها للدخول في وصلة بمختلف القيم التي يتصارع من أجلها الإنسان عموما في تفاعلاته مع الحياة الاجتماعية. ومن هنا فإن السلوكات الإنسانية والإنتاجات الثقافية وأشكال التنظيم الاجتماعي والتظاهرات الثقافية يتجلى وراء تنوعها وبريقها الجمالي نظام سيعمل الباحث كل ما في وسعه لإبرازه والإمسك بتجلياته الدلالية. ويمكن أن نفهم تصدير الأستاذ سعيد لبحثه بمقترحات شتراوس المنهجية في إطار الرؤية التي صمم معالمها ستروس الذي يقر بأن تكرار الثيمات والموتيفات يشكل الهوية الثقافية للحكايات، وهذا يتعارض تماما مع توجه بروب المنهجي الذي يشدد على أن المتغيرات وتجميع الموتيفات داخل ثيمة يرتبط بامتياز بنية قارة خصوصية للحكاية تتجلى عبرها الوظائف التي ضبطها من خلال تعامله مع متن من الحكايات الروسية.

إن لجوء بروب إلى الفصل بين المستوى النظمي والمستوى الاستبدالي هو الذي قاده إلى "الفصل بين المضمون والشكل. فالشكل وحده حسب بروب، قابل للإدراك أما المضمون فلا يشكل سوى عنصر زائد ولا يملك أية قيمة دلالية²³. إن هذه النقطة المفصلية التي أشار إليها الأستاذ سعيد من خلال الارتكاز على نص مقدمة كريمانس ستقوده إلى إثارة مسألة في غاية الأهمية شدد عليها ستروس وتبناها كريمانس في هذه المقدمة. وتكمن أهميتها في المخرج المنهجي الذي يمهّد الطريق لا للوقوف على خطية تتابع النظمي للوظائف بل للاستناد إلى التجميع الزوجي الذي لا يحدد بالكامل بالدياكرونية السردية. ويتمثل الهدف من المنهج المستعمل لإبراز مزاجية الوظائف في تجاوز تتابع الأحداث والأفعال لإدراك معنى الحكاية. فالخطية الكرونولوجية تعد من الآثار السطحية التي لا

تسمح بالكشف عن البنيات السردية الحاملة للمعنى. وعلى هذا الأساس يعد معنى الحكاية محصلة لتقاطع محورين: الأول نظمي يتوافق مع تتابع الأفعال، والثاني استبدالي يغطي التتابع النظمي للحكاية. على هذا المرتكز المنهجي الذي تعكسه مقدمة غريماس سيبني الأستاذ سعيد رؤيته الساعية إلى الكشف عن القفزة النوعية التي حققها السيميائية الفرنسية الناشئة من خلال صياغتها الجديدة للمشروع البروبي وتقديم البدائل المنهجية الكفيلة بالتصدي للحكاية بوجه خاص والنصوص السردية بوجه عام والجديرة بتجلية التطورات النظرية التي حصرها الباحث في ثلاثة محاور أساسية ضبطها من منطلقات التصميم الذي وضعه غريماس في مقدمته: الوظيفة ومستويات تنظيم السردية والخطاطة السردية.

وإذا ركزنا اهتمامنا على المحور الأخير فسنذكر أن الأستاذ سعيد لم يتوسع في الخطاطة السردية ربما لأن غريماس لم يعالجها بالقدر الكافي في هذه الدراسة. ومن ثم فإنه لقي نفسه مضطرا، من الناحية المنهجية، ابتداء من المبحث الأول من الأطروحة الموسوم بالتحريك²⁴، للاستعانة بنصين أساسيين في المسار العلمي لغريماس: المعجم المعقلن لنظرية اللغة²⁵ وفي المعنى²⁶ ليحدد الإطار النظري للخطاطة السردية ومكوناتها: التحريك، الكفاءة، الإنجاز والتقويم. إن قراءة سريعة في هذه المصطلحات وتحديد التحريك من خلال ربطها بما جاء في المقدمة تجعلنا ندرك أن الأستاذ سعيد لم يلق مشقة في ترجمة عدد غير قليل من المصطلحات ذات الأصول اللسانية على الرغم من وجود اختلافات في ترجمة العديد منها. وغالبا ما تأتي الصعوبة لما يتعامل الباحث لأول مرة مع مصطلح لا وجود له في الدراسات السيميائية العربية ولا في القواميس الثنائية اللغة. حتى وإن لقي الترجمة العربية وقلب مسألة المفاهيم التي تحملها من جميع الجوانب، فسيذكر أن قسما كبيرا من المصطلحات لم تغطه. فيفقد في هذه الحالة الطابع التمثيلي ويكون مطالبا باختيار الأنسب مما تعرضه عليه القواميس الثنائية. لا أستبعد أن هذه الصعوبة الكبيرة واجهت الأستاذ سعيد وهو يتصدى لترجمة مقدمة غريماس وعدد غير قليل من المصطلحات السيميائية. يكفي أن نشير إلى مصطلح Manipulation واضطرابها بين التحريك والتحفيز. وسيستقر في نهاية الأمر على التحريك بدء من رسالة الدكتوراه ومرورا بمختلف إصداراته حول السيميائية ذات توجه مدرسة باريس. ويعد الأستاذ سعيد أول من استعمل هذا المصطلح (بعد ظهوره لأول مرة في قاموس السبيل للأستاذ دانيال رينغ في 1984) الذي تبنته نسبة كبيرة من الدراسات السيميائية العربية. وهذا يدل دلالة قاطعة على أن الأستاذ سعيد لا يحرك آله النقدية إلا من موقع إدراكه العميق لحالة الانسداد التي وصل إليها النقد العربي. وقد اقتنع بعد معانيته وقراءته المتفحص لواقع الدراسات السيميائية الراهنة ومن منطلقات تعامله مع نصوصها من خلال ترجمة العديد منها، بضرورة التعاطي مع الترجمة باعتبارها ممارسة سيميائية بامتياز. في إطار هذا التصور، حرر الأستاذ سعيد مجموعة من الدراسات المنشورة في مجلة

علامات (القسم الرابع من الجدول أعلاه) ومجلات عربية أخرى تصمم الأطر النظرية العامة لترجمة المصطلح والسبل الكفيلة بتجاوز الإشكالات التي يطرحها.



- ¹ أُلقيت هذه المداخلة في إطار الندوة الدولية التي نظمت بتاريخ 22 أبريل 2016 في موضوع "السيميائيات بالمغرب: تجربة الدكتور سعيد بن كراد مثلاً".
- ² الافتتاحية في مجلة علامات العدد 10، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1998، من ص. 4. إلى ص. 6.
- ³ نفسه، ص. 4.
- ⁴ A. J. Greimas, J. Courtés, Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Hachette, Paris, 1979
- ⁵ الجيرداس. ج. غريماس، جاك فونتن: سيميائيات الأهواء، ترجمة وتقديم سعيد بنكراد، دار الكتاب الجديد، بيروت، 2010، ص. 42.
- ⁶ افتتاحية العدد الثاني من مجلة علامات.
- ⁷ أمبرتو إيكو السميوزيس والقراءة والتأويل. ترجمة بن كراد سعيد، مجلة علامات 1999/11، - ماريو فالديس، بصدد التأويل مجلة علامات، ترجمة بن كراد سعيد 2008/30.
- ⁸ بن كراد سعيد من الهرموسية إلى السيميائيات، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2012.
- ⁹ نفسه، ص. 20.
- ¹⁰ نفسه، ص. 29.
- ¹¹ نفسه، ص. 29.
- ¹² بيرنار كاتولا، الإشهار والمجتمع، ترجمة بن كراد سعيد، منشورات علامات، المغرب، 2012، ص. 16.
- ¹³ شاهد مأخوذ من مشروع وحدة البحث والتكوين "الخطاب وآليات اشتغاله" السيميائيات وتحليل الخطاب السنتين الجامعيتين - 2001 - 2003، انظر الموقع الإلكتروني للأستاذ بن كراد سعيد.
- ¹⁴ الصورة الثابتة، محاولة تحديد، نص مأخوذ من كتاب غي غوتي الموسوم عشرون درساً حول الصورة والمعنى، ترجمة عبد العلي الزمي وبن كراد سعيد، مجلة علامات، العدد 1995/5: 5-8، Ed. edilig, Paris, 1986, pp. 5-8.
- ¹⁵ بن كراد سعيد الإرسالية الإشهارية، التوليد والتأويل، مجلة علامات، 1995/5.
- ¹⁶ ولا يكف الحصان عن الصهيل 1997/7 - نساؤهم ونساؤنا 1999/12. - والنجم إذا علا 2002/18، الصورة الإشهارية/تمثيلات البارد والساخن 2003/20.
- ¹⁷ بيرنار كاتولا: الإشهار والمجتمع، ترجمة سعيد بنكراد، دار الحوار، سوريا، 2012، ص. 5.
- ¹⁸ نفسه، ص. 74.
- ¹⁹ أ.ج. غريماس، السيميائيات السردية، (المكاسب والمشاريع) في طرائق تحليل السرد الأدبي، دراسات، ترجمة سعيد بنكراد، منشورات اتحاد كتاب المغرب، مطبعة المعارف الجديدة، المغرب، 1992، ص. 183-201.
- ²⁰ Joseph Courtés, Introduction à la sémiotique narrative et discursive, Hachette, Paris, 1976.
- ²¹ A. J. Greimas, J. Courtés, Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Hachette, Paris, 1979.
- ²² Joseph Courtés, Analyse sémiotique du discours, de l'évoncé à l'énonciation, Hachette, Paris, 1991.
- ²³ سعيد بن كراد، دراسة سيميائية في تجربة حنا مينه، مخطوط، ص. 24.
- ²⁴ سعيد بن كراد، المرجع السابق، ص. 59.
- ²⁵ A. J. Greimas, J. Courtés, op.cit.
- ²⁶ A. J. Greimas, Du sens, Seuil, Paris, 1970.